محنة تراثنا

- الغزو الصليبي
- الصراع المذهبي
- الإعصار التتاري
- عصور الظلام

obeikandl.com

obeikandl.com

أين ذهب هذا التراث كله ؟

سُنة الحياة التى جعلت من عصور القوة فى الدولة الإسلامية ، عصورَ ازدهار لحضارتها العلمية والفنية والعمرانية .

هى نفسها التى عرضت تلك الدور العلمية العامرة ، لمثل ما تعرضت له الدولة فى عصور ضعفها وانحدارها .

وواجهت معها نهاية واحدة ، بحكم ارتباطهما بحتمية المصير الواحد .

وبدأ التحول مع نهاية القرن الرابع ، الذى هو فى حساب المؤرخين عصر القوة للدولة الفاطمية بمصر والشام ، والدولة الأموية بالأندلس . وإن كان وهج الازدهار الساطع قد أخفى عوامل الضعف إلى حين ، ريثما نمت بذورها الكامنة فى الأعماق تحت السطوح البادية :

فقوة هذه الدول الإقليمية ، كانت على حساب القوة المركزية للخلافة بالعراق . والخلايا المستقلة كانت تكبر وتتضخم ؛ على حساب الكيان العام الذى بدأ يضمر ويضمحل .

ثم إن الدولات الإقليمية الطارئة كانت تحمل فى ذاتها عوامل ضعفها وتدميرها ، بحكم ارتباطها بمصير القادة أو الأمراء الذين استقلوا بها وأقاموا لهم فيها دولات .

والصراع المذهبى والشعوبى ، قد فتح ثغور الشرق الإسلامى لتيارات عاتية من الغزو الأجنبى ، صدها الشعب بما بقى له من قوة لكنها استنفدت طاقات الدولة وأسلمتها إلى ظلمات ليل طويل .

وإذ نُركِّز نظرتنا فيما لقيت مكتبات بغداد والقاهرة وقرطبة ، نستطيع أن نلمح من بعيد ، مجرى الأحداث التى هزت كيان الدولة العام .

كما نستطيع أن نجد جواب السؤال :

— أين ذهب كل ذلك التراث الذى جمعته أمتنا فى عصر قيادتها للحضارة ، وعمرت دور كتبها بالملايين من ذخائره ؟

* * *

فى حملات الغزو الصليبى ، تلفت من تراثنا ذخائر لا تعوض . إلى جانب ما حُمِل إلى الغرب منها مع الغزاة .

ثم لما انكسرت موجات الصليبية على سواحل مصر والشام ، بفضل الجبهة الموحدة فى قلب المشرق الإسلامى ، لم تنجُ بقايا تراثنا من معارك الصراع المذهبى الذى احتدم ضرامه على ساحة الدولة الكبرى . فحيثما أتيح لأصحاب مذهب مجالُ نفوذٍ وسلطان ، ألحوا على كُتبِ خصومهم حرقاً وإتلافاً ، على ما يسجله تاريخنا السياسى والمذهبى . ومع أن مثل هذا التدمير كان موجهاً بصفة خاصة إلى كتب المذاهب ، إلا أن لهب الحريق لم يكن يميز بينها وبين غيرها . وقد كان الحكام المذهبيون يريحون أنفسهم بإحراق الكتب جملة ، لتعذر فحص الملايين منها ؛ إلا أن يتاح لهم — فى القليل النادر — مستشار رشيد ، ينقذ ذخائر التراث التى لا شأن لها بصراع المذاهب .

وفى هذا الصراع المذهبى ، لقيت مكتبة العزيز بالله ، وكل دور الكتب بمصر الفاطمية ، مصيرها الفاجع مع سقوط الفاطميين وذهاب سلطانهم بعد أن عانت معها فترة قلق عاصف واحتضار بطىء .

كانت مكتبة العزيز بالله ، قد آلت إلى ابنه « الحاكم بأمر الله » فشيد إلى جانبها مكتبة أخرى سمّاها دارَ العلم ، جمع لها علماء العصر ونفائس الذخائر فكانت أعجوبة الزمان . ثم كان الحاكم بأمر الله ، هو الذى أغلق دار العلم وغدر بالعلماء فاهتز الصرح الشامخ ، أثراً لفتنة مذهبية بين رجال العلم والسياسة . وفى أيام الخليفة المستنصر بن الظاهر العلوى (٤٢٧ هـ) تمرد الجنود الأتراك يطلبون زيادة مرتباتهم التى قاربت نصف مليون دينار . ولما عجز السلطان عن إجابة مطالبهم أرغموه على بيع كنوز قصره التى جمعها آباؤه وأجداده منذ تأسيس دولتهم الفاطمية . وسطا الجنود على ذخائر الكتب فى مكتبة العزيز ودار العلم والجامع الأزهر ، فحملوا منها ما حملوا وباعوه فى الأسواق بأبخس الأثمان . واتُّخِذتْ جلودُها الثمينة نعالاً ! ونجت بعض الذخائر بفضل عدد من أهل القاهرة تطوعوا بشرائها ليصونوا تراث العربية والإسلام ، وتوزعت هذه الذخائر على المكتبات الخاصة وبعض الزوايا والمساجد الأهلية . حتى سقطت الدولة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ)

وأعيد فتح دار العلم ومكتبة الأزهر ، لكن نفراً من رجال الدين أشاروا على « السلطان صلاح الدين » بإتلاف تراث الفاطميين من الكتب ، لأن فيها ضرراً على الإسلام . واستجاب لهم صلاح الدين فأمر بإتلافها ، فيما عدا ما أنقذه وزيره « القاضى الفاضل » ، وقد أذن له صلاح الدين فى اختيار الكتب التى تخلو من الأهواء المذهبية ، مطمئناً إلى خبرته وعلمه وأمانته . وبهذه الكتب ، عمرت مكتبة الجامع الأزهر ، والمكتبة الفاضلية ، إلى جانب ما شيد من مكتبات ألحقت بالمساجد التى أقبل المسلمون على بنائها للعبادة ، فكانت فى الوقت نفسه مدارس للعلم ، عمرت زماناً حتى دخلت البلاد مع العصر التركى فى ظلمات الليل .

* * *

وننظر إلى المشرق ، حيث كيان الدولة مثخناً بالجراح من أثر الفتن المذهبية والتمزق الشعوبى وانتثار القوى . فنلمح مع مطلع القرن السابع ، نذر الخطر تأتى هذه المرة مما وراء النهر . فى أقصى المشرق ، ثم لا تلبث جيوش « هولاكو » أن تندفع كإعصار مارد . فتتهاوى حصون الشرق الإسلامى حصناً فى إثر حصن . واجتاح الإعصار خراسانَ وفارس كلها ، ودمر فيما دمر ما لا يحصى من صروحنا العلمية وكنوز ثقافتنا ومعالم حضارتنا : فى بخارى ونيسابور والرى وأصفهان . ثم اكتسح العراق فسقطت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية سنة ٦٥٦ هـ ، وبدا ألا عاصم عندئذ من الهلاك ، وظُن أن الإعصار سوف يندفع فى طريقه لا يلوى على شىء ، حتى يبلغ أقصى مَدّه عند أطراف العالم الإسلامى على ساحل المحيط الأطلسى ، مدمراً فى طريقه كل تراث العرب والإسلام ، لولا أن تصدت له الجبهة الموحدة فى مصر والشام . لتحمى العربية ديناً ودولة .

وانكسرت أمواج التتار الزاحفة الهادرة ، عند عين جالوت .

وعكف رجال العربية والإسلام ، بعد الموقعة الظافرة الحاسمة فى عين جالوت ، يفتشون بين الخرائب والأطلال عن ذخائر تراثنا فى بيت الحكمة ، والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية ، وغيرها من دور الكتب العامرة وصروح العلم الشامخة ، فإذا النار قد أكلت ما أكلت منها حتى شبعت فقُذف بالباقى إلى النهر .

فيقال إن الكتب سدت مجرى دجلة ، وجاز الناس عليها ما بين شطيه كأنها جسر معقود .

* * *

لكن روح الوعى التى هزمت الصليبيين والتتار ، استطاعت أن تملى على أجدادنا دورهم الجليل فى تلك المحنة التى ضيعت تراثنا :

جدَّ رجال العربية والإسلام ، فى جمع البقايا المتخلفة من بين الأنقاض ، وشهد التاريخ جنوداً منهم عاكفين على استنقاذ ما وعت ذاكرة معاصريهم من معارف عربية وإسلامية ، ذهبت فيما تلف من ذخائر تراثنا .

وعلى أيديهم استُحدِث فن جديد فى التأليف العربى هو فن الموسَّعات الذى ازدهر بعد سقوط بغداد حتى عرف فى تاريخنا الثقافى والأدبى بعصر الموسعات ، دلالة على هذا اللون المستَحدث من التأليف القائم على جمع المواد الثقافية فيما يشبه دوائر معارف عربية جامعة ، ملئوا بها فراغ المكتبة العربية الإسلامية التى تركها التتار أنقاضاً ورماداً .

إلى الشام ، أوى « ياقوت الحموى ، حين دهمه الإعصار التتارى وهو بخراسان فى العشر الثانية من القرن السابع ، فهام على وجهه جائعاً ممزق الثياب يلتمس النجاة والملاذ ، حتى استقر به المقام فى حلب ، يدوِّن ما وعى من تراث العربية الذى شهد مصيره فى مهب الإعصار ، ويقاوم الهموم والأوصاب ، ريثما ينقل ما فى حافظته من معارف العربية وتاريخ رجالها حتى مات سنة ٦٢٦ هـ تاركاً لنا فيما ترك من تراثه ، معجميه الكبيرين فى بلدان الشرق الإسلامى ، وتراجم أعلام رجاله .

وفى مصر ، كان « أبو العباس شهاب الدين النويرى » عاكفاً على كتبه ودراسته حين صك مسمعه نبأ سقوط بغداد ، فهجر كتبه وأهله وانطلق إلى الخط الأمامى بسورية مجاهداً فى سبيل الله ، حيث تولى إمرة الجيش فى طرابلس الشام ، فلما تم النصر لجنود الجبهة الموحدة ، عاد إلى مصر ليستأنف الجهاد الآخر فى رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون : مضى يجمع كل ما وعى عصره من معارف عربية ، فما انقضى أجله سنة ٧٣٢ هـ حتى كان قد أودع المكتبة العربية الخاوية ، موسعته

الكبرى « نهاية الأرب » التى دون فيها خلاصة المعارف والثقافات المعروفة فى البيئة العربية الإسلامية إلى عصره : الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى .

وهنا وهناك وهنالك ، على امتداد الوطن الكبير ، كان رجال أعلام متفرغين للجهاد القومى فى إنقاذ تراثنا ، ومن بعدهم تتابع على الميدان خلف صالح ، حملوا الأمانة فى صبر واستبسال . . .

وتركوا لنا تراثهم ، يسد الفراغ ويضىء المسرى فى غبش الظلام الذى ما لبث أن تكاثف وادلهم . . .

• • •

وهناك فى أقصى المغرب ، لقيت مكتبة الزهراء ودور العلم بالأندلس ، نفس المصير الذى لقيته دور المشرق ، وإن اختلفت الأسباب :

مضى عصر القوة والوحدة للدولة الأموية فى الأندلس ، وهبت ريح الفتنة فهزت قواعدها ، ومزقتها بين الطوائف ، وبدأت الشمس تجنح إلى مغيب ؛ ثم خبا الضوء ، وانطفأ المنار ، وسقطت دولة العرب والإسلام بالأندلس بين أيدى الإسبان الذين جُنت بهم العصبية الدينية والقومية ، فألحوا على صروح العلم العربية تخريباً وتدميراً ، وقلبوا المسجد الأموى بقرطبة ، كنيسة كاثوليكية ، واتخذوا من مسجد طليطلة اصطبلاً لخيولهم ، وأحرقوا خزائن الكتب العربية على عادة العصر ، فلم يسلم مما جمعه أمراؤها وألفه علماؤها من ألوف الذخائر ، غير ما حمل إلى أوربا ، أو هاجر مع المسلمين إلى المغرب ، وبقية ضئيلة ظلت مختفية حتى هدأت العاصفة وارتوى التعصب الجامح ، فكانت هذه البقية نواة لمكتبة الإسكوريال بمدريد ، أشهر مكتبة بإسبانيا فى العصر الحديث .

• • •

غربت الشمس عن ديار العرب والإسلام ، من أقصى المشرق الأسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى ، بحكم جبرية المصير الواحد لأمة واحدة . . .

وفى ظلمة الليل الغاشى ، هان تراثنا على قومنا وهم فى سباتهم إبان العصر التركى ، وجهلوا قدره فلم يعودوا يرون فيه سوى ركام هين لا قيمة له .

كانت بقاياه التى سلمت من التدمير والضياع ، مبعثرة فى خزائن للكتب بالمساجد . فجاء سلاطين آل عثمان فحملوا ذخائره إلى مركز الخلافة بتركيا ، مع ما حمل من كنوز الأقطار الخاضعة لها وثرواتها . . .

ولم يكن حرص السلاطين على اجتلاب هذه الثروة العلمية والأدبية عن تقدير لقيمة المخطوطات أو الانتفاع بها ، على نحو ما شهدنا من صنيع الخلفاء فى عصور القوة والنهضة . وإنما حملوها إرضاء لشهوة التملك والاقتناء ، واستكمالاً لمظهرية السلطان. وكان أقصى ما قدروه من قيمة لها ، هو إرضاؤه الوجدانَ الدينى لجماهير الشعوب المتدينة ، التى يحكمها الترك العثمانيون باسم الإسلام . فراح السلاطين يبنون المساجد التى تحمل أسماءهم ، ويكدسون فيها الذخائر من تراث العربية والإسلام ، حيث بقيت هناك أكواماً تملأ السراديب الدهاليز ، دون أن تُعرف لها قيمة أو يرجى منها نفع .

حتى سقطت الدولة العثمانية ، فانتقلت كنوز تراثنا هناك على معابر الدردنيل والبسفور إلى الغرب المنتصر .

والذى كان قد بقى منه لدى الأقطار العربية ، تعرض فى الليل الغاشى لمحنة التبديد ، عن هوانٍ به على أهله ، وجهلهم بقدره .

والغرب إذ ذاك مفتوح العينين ، يجدّ فى جمع هذا التراث الذى هان على أصحابه ، ويعرف من قيمته ما جهلوا .

* * *

كانت هذه الذخائر التى بقيت لنا ، مودعة فى المساجد والزوايا ، بضاعةً رخيصة لا تساوى وزنها ورقاً عند خدام المساجد الموكول إليهم أمرها . ورحم الله أجدادنا : وقفوا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحى والعلمى على خدمة العلم والدين ، وأودعوها بيوت الله ، وهم يحسبون أنها فى دور العبادة بمأمن من الضياع . ولم يدروا أن سوف يأتى علينا وعليها حين من الدهر ، يؤتمن فيه خدام المساجد والزوايا على هذه الكنوز دون رقيب ، فيبيعونها بالكوم لباعة الترمس والفول كى يغلفوا فيها بضائعهم قبل أن تظهر الصحف والمجلات وتؤدى هذه المهمة . وقد حدّث شاهد عيان من أساتذتنا ، أنه رأى بعينيه خادم مسجد المؤيد يملأ السلال

بنفائس المخطوطات ، ويبيعها لمن يطلبها بثمن بخس ، وربما قبل بعض القوت عوضاً عن الثمن .

وذكر « الكونت دى طرازى » أن خادماً يدعى « ابن السليمانى » عُيِّنَ فى منتصف القرن التاسع عشر ، خازناً لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد مصر « وجعل له ديوان الأوقاف راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون قرشاً . وكان الرجل يستعين على العيش ببيع قصب السكر . فجعل يقف فى زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن ، ويضع بجانب بضاعته من القصب ، أكواماً من مخطوطات المكتبات الثلاث ، يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين »[1] .

ولم تكن حال المخطوطات فى بيوتنا بأحسن من حالها بين أيدى ابن السليمانى وأمثاله ، وقد مضى جامعوها وآلت إلى خلف لهم يجهلون قيمتها ويضيقون بها .

أذكر فيما أعى من ذكريات طفولتى ، قاعة مظلمة مهجورة فى بيت جَدِّى لأمى بدمياط ، كُدست فيها أكوام من المخطوطات معفرة بالتراب تعيث فيها العتة والقرضة . وبين حين وآخر ، كانت أوراق منها تؤخذ فينفض عنها التراب وتستخدم فى بعض الأغراض المنزلية الهينة دون تهيب أو تحرج . وربما تسلل صغار الأسرة — وأنا منهم — فحملوا منها وقوداً للحرائق الصغيرة التى جرت عادتنا على إشعالها فى الصبح الباكر من شم النسيم ، دون أن نعى ما بذل جدنا الكبير — وقد كان شيخاً للأزهر — من عمره وماله ، لهذا التراث الذى نعبث به ونلقى به فى لعبنا ، وقوداً للنار !

* * *

والذى حدث فى مصر ، حدث فى الشام والعراق والحجاز واليمن ، وسائر أقطار وطننا الكبير .

كتب الأستاذ « السيد محمد كرد على » ، رحمه الله ، فى خطط الشام :

« ومن المصائب التى أصيبت بها كتب الشام ، أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولاندة وروسيا ، أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر

---

(١) خزائن الكتب العربية فى الخافقين : ١/١٩٠ .

كتباً — من تراثنا — تبتاعها من الشام بوساطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكان قومنا ولا سيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع ، بلغ بهم الجهل والزهد فى الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب ، فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم .

« وحدثنى الثقة أن أحد سماسرة الكتب فى القرن الماضى ، كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم فى دمشق ، ويختلف إلى متولى خزائن الكتب فى المدارس والجوامع ، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة . وبقى هذا سنينَ يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام ، ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكأفأته عليها »[1] .

وهكذا تسربت أكثر البقية من كنوزنا إلى الغرب ونحن نيام ، وأبيحت ذخائر تراثنا للأجانب دون أن يجدوا من يصدهم عنها ، فذهبوا بها على مرأى منا ومسمع ، وكان كل نصيبنا من ثمن البضاعة قروشاً معدودات لحراس الكتب وخُدام دور العبادة ، وفرصةً للتندر بحمق أولئك (الفرنجة) المغفلين الذين تستهويهم مخطوطات قديمة صفراء ، لا قيمة لها فى حسابنا .

* * *

وإذ وصل بنا الحديث إلى عملاء الغرب وسماسرته الذين راحوا يجوسون خلال ديارنا بحثاً عن مخطوطات تراثنا ، نتمهل هنا لنشهد موضعه هناك ، ومآله بين أيدى المستشرقين .

---

(١) خطط الشام : ١٩٨/٦ ط دمشق .